

مدرجُ المرید السالكِ للوصول إلى مقام
الشيخ الدرك
قراءة في تائیه الشيخ سيدي عبد القادر
بن محمد بن سليمان ابن أبي سماحة

د. الجيلالي سلطاني*

الحمد لله الذي جعل الطريق إليه طريقا واحدا فردا مستقيما، لا يسلكه سوى فرد مستقيم وذلك كابر بعد كابر، وجعل سلوكه مشروطا بالمبايعة المصاحبة والتعليم والاجتماع والألفة والمحبة، وقد يسر الله منهاجنا لسائر الأخيار والأولياء والصدّيقين وبقية أولي الألباب.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد الأمي الذي كان أول سالك لطريق الله بالله، وعلى بصيرة من الله، وبايعه على سلوك هذا الطريق صفوة صحبه من أهل بيعة الرضوان وأصحاب الصفة، وسلام الله على إخوانه الأنبياء والمرسلين وسائر السالكين إلى حضرة الحق على قدم الصدق والإخلاص.

إن الهدف من الموضوع هو استخلاص النصائح والأوامر التي يتلقاها المرید السالك من الشيخ سيدي عبد القادر بن محمد بن سليمان، وهي نصائح وأوامر تعتبر شروطا وقواعد يلتزم بها السالك ليصل إلى باب التحقيق، باب الوصول إلى الحضرة الإلهية.

إن الطريق إلى حضرة الحق، ليس بالأمر الهين السهل، ولا بالطريق المفروش بالأزهار والورود، لأن الولوج إلى محرابها أمر يستعصي على غير العارفين

* - قسم الحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران.

الداركين، وذلك لكونه أشبه بالبحر المترامي الأطراف الذي لا يعرف قراره أو ساحله، والذي غرق فيه الكثير¹ هو أشبه بالصحراء الواسعة الشاسعة يحسب الضمان سراها ماءً فيسرع إليه فلا يجده شيئاً.

إن الطريق إلى الحضرة الإلهية أو بلوغ مقام العرفانية، له معان وأسرار لا تعلم إلا بالمنازلات والمواجيد، ولا يعرفها إلا من نازل تلك الأحوال وحل تلك المقامات، وإن طعامها "كالطعام الدسم الذي لا تتحملة غير أمعاء الأقوياء، وإن نورها كالنور الذي تعجز عنه العيون الرمد، ولا يستطيع مواجهته غير أصحاب البصائر والأبصار".²

من ثم فإن السالك المرید يتعذر عليه الدخول إلى هذا المحراب، إلا إذا أوتي مفتاحه، والمفتاح السر لا يمتلكه إلا أهل الحقيقة أمثال الشيخ سيدي عبد القادر بن محمد بن سليمان وغيره من أهل المعرفة للواردات الإلهية والتنزلات الروحية، يقول سيدي عبد القادر متسائلاً³.

فأي وصول كان من غير بابنا وأي دخول منه دون إشارة

ثم يضيف:⁴

فكن مقتد بنا وثق بكلامنا وجد بسيرنا تفر بالمودة
فإنني عبد القادر بن محمد سليل أبي الربيع نجل السماحة
ولا فخر غير أبي عبد القادر وأحمد تاج الرسل أقوى وسيلة
فبا لا تباع نلنا مرتبة العلى فبالله ما جدنا عن شرع وسنة

فقوله: «فأي وصول كان من غير بابنا، وأي دخول البيت..» إشارة إلى المعاني التي أودعها الله تعالى في قلبه وقلوب غيره من العارفين، واستخلص لحقائقها أسرار نظرائه من الداركين وقوله: «فكن مقتديا بنا وبالاتباع نلنا مرتبة العلى تنبيه إلى العلاقة التي تربط المرید بالشيخ والسالك بالمسلك، على اعتبار أن المسلك هو الشيخ الواصل الذي جاب الطريق،

وعرف مداخلة ومخارجه وسهوله ووعره . فكينونة الاقتداء في قوله المذكور، ضرب من إلزامية التلمذة السلوكية على يد الشيخ الذي يساعد السالك على متاعب السفر ومشاقه، ويمهد له طريق الوصول المعبر عنه بـ "المرتبة العليا" . ذلك، أن مبدأ اتخاذ الشيخ خلال سلوك الطريق . كما يقول السيد محمود أبو الفيض المنوفي- ما زاد عن اتخاذ المغامر في سلوك الوعر المجهول دليلا له في سيره، هذا الدليل سبق له أن سلك المفاوز، فعلم يقينا سهولها وشعابها ووعورها ووهادها ... فيتخذها المبتدئ في سلوك الطريق حتى يأمن على نفسه الهلكة أو الضلال باصطحاب ذلك الدليل الذي يدل على المسلك السوي خلال الطريق⁵.

وشيخنا سيدي عبد القادر، إذ يوصي باقتداء المريد بشيخه، إنما يتبغي وضع له معالم الطريق إلى الله، تكون نبراسا ينيير للمريد سبيل الخير والرشاد، ويدله في الوقت نفسه على المسلك الأقرب إلى الله، بما يرشده إليه من أنواع الرياضة والذكر والخلوة غير ذلك .

وعن بداية الطريق يقول سيدي عبد القادر⁶.

دايئها للغافلين بتوبة ٍ وأشرا طها محصورة بالتبُّت

فالبداية إشارة إلى المقامات التي يراد قطعها بالأعمال التي يقوم بها السالك متدرجا فيها من مقام إلى آخر، على أن يخلص في كل مقام فيبلغ الغاية فيه، وحين يبلغها، يدخل في المقام الذي يليه، وهكذا حتى نهاية المقامات في مجاهدة النفس وترويضها، والمقامات التي أجمع الصوفية عليها هي على الترتيب: التوبة، الورع، الزهد، الفقر، الشكر، الخوف، الرجاء، التوكل، الرضا، ولها مصطلحات عندهم⁷.

فالتوبة هي أول أركان الرياضة، لأن ذلك يدعو إلى محاولة الاستقامة مع الله والسلوك في مقامات الإيمان المؤدية إلى أحوال الإحسان، وهي مفتاح كل

حسنة، وحد التوبة نسيان الذنب وابتغاء القرب. وهي عند القشيري، أول منزل من منازل السالكين، وأول مقام من مقامات الطالبين .

وعند الشيخ سيدي عبد القادر هي دلالة للمريد على الطريق⁸، الذي هو أعلم به منه، وبوصفه شيخا ملقنا وعارفا مرييا، فإن المريد ملزم بإعلان التوبة أمامه، حتى يفتح له الطريق، لأن طريق الشيوخ - كما يذكر الشعراني رحمه الله، كلها حضره الله جلا وعلا، كحضره الصلاة أو الجنة، فكما لا تصح الصلاة مع النجاسة، ولا دخول الجنة مع تبعات الخلائق، فكذلك لا يصح دخول الطريق مع المعاصي والتبعات⁹.

وقول الشيخ: «أشراطها محصورة بالثبوت» إحالة إلى شروط التوبة التي منها ترك الذنوب لأمر الله تعالى، ومنها الندم على ما عمل من المخالفات، وترك الزلة في الحال، والتصميم على أن لا يعود إلى مثل ما عمل من المعاصي¹⁰.

وبمثل ما قال المحققون العلماء الحكماء، بأن السلوك إلى الله تعالى له بداية وتوسط ونهاية، قال به سيدي الشيخ وقرره في تائيته، إذ يقول:¹¹

بدايتها للغافلين بتوبة وأشراطها محصورة بالثبوت
قواعدها شوق وعين يقينها محبة جد السير دأبا لحضرة
نهايتها شم ودوق شراهما به ري خمر ثم سكر بعيبه

فالأبيات الثلاثة، تصريح بالمقامات الكبرى المعروفة عند أهل الحقيقة وأرباب البصيرة، المعبر عنها بالبداية التي هي اليقظة والتوبة، والقاعدة أو التوسط الذي هو المحبة والأدب ثم النهاية رمز العلم والمعرفة.

وعن البداية بالتوبة وما يتبعها من مقامات التي يدخلها السالك، يقول شيخنا قدس الله روحه:¹²

ونُصِّحُ لدينِ اللهِ ثمَّ رسولهِ وخاصيتهِ والمؤمنينِ بجملة
وتطيبُ لُقمةً وتعظيمُ حرمةً وشكرُ لنعمةٍ ورفعُ لهمةً

فألفاظ النصح، والتطبيب، والتعظيم، والشكر والرفع، كلها ألفاظ دالة على المقامات الإلهية التي يسلكها المرید لبلوغ الحضرة الإلهية، فالنصح لدين الله ولرسوله وخاصته وغيرهم، وما يرتبط به من تطيب اللقمة وتعظيم الحرمة، تعبير عن مقام الورع الذي قال فيه الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم «كن ورعا تكن أعبد الناس»¹³.

فالورع مقام شريف، أساسه الإيمان، والورع تورع عن الشبهات التي اشتبهت على المرید السالك، وهي ما بين الحرام والباحل، وما لا يقع عليه اسم حلال مطلق ولا اسم حرام مطلق فيكون بين ذلك، فيتورع عنهما¹⁴. ثم مقام الشكر في قوله «وشكر لنعمة» قال الله عزوجل «لئن شكرتم لأزيدنكم» سورة إبراهيم: 7، فالشكر اعتراف بالنعمة بنعت الاستكانة، وعن قواعدها يقول سيد الشيخ¹⁵.

قواعدها شوقٌ وعين يقينها محبةٌ جد السير دأباً لحضرة
وكف الأذى وحمله وتصبرٌ ولا تهمل الرضى بأدهى المحصية
وزهدٌ وتسليمٌ وعفوٌ وعفةٌ وتفويضٌ أمرٍ والشَّهْودُ بمنة
وجدٌ قويٌّ واجتهادٌ موافقٌ وصومٌ وسهرٌ ثم صمتٌ وعزلة
وحزنٌ ودمعٌ ساكبٌ ثم لوعةٌ وشغفٌ قلوبٍ الواهينَ بزفرة
والحق، إذ كان أهل الحقيقة قد جعلوا البداية لليقظة والتوبة، وأفردوا التوسط . الذي عبر عنه سيدي الشيخ بالقاعدة . للمحبة والأدب، فإن سيدي عبد القادر جعله القاعدة الأساسية، على اعتبار أن السالك إذا تاب وظهرت عليه علامات النصح والورع والتقوى، كان ذلك مقدمة أساسيات مقامات أخرى، يتدرج فيها المرید ويترقى، حتى يصل إلى النهاية رمز المعرفة الربانية والعرفانية الإلهية، لذلك فإن سيدي الشيخ يركز على هذه الوسطية ويعتبرها الركن الأحوط للمرید .

ذلك، أن ألفاظ الشوق، واليقين، والمحبة، والجد، والصبر، والرضى، والزهد، والتسليم، والعفو، والعفة، والتوكل، والاجتهاد، والصوم، والسهر، والصمت والعزلة، والحزن، والبكاء، واللوعة،.. وغيرها، كلها ألفاظ دالة على المقامات الإلهية التي يسلكها المرید، بمجاهدة النفس وترويضها، ليصل إلى باب الانقطاع إلى الله.

فالإيمان محبته، والتوكل حالته، واليقين حجته، والاستسلام مطيته، والزهد بضاعته، والمحاسبة أمانته، والعفة نقايته، والجد أو الاستقامة عدالته، والرضا غنيمته، والتسليم راحته، والتفويض سياحته، والتقوى عمدته، والصبر عادته، والخلوقة بيته، والصوم تركيته، والحزن تصفيته، والدمع صفاءه، واللوعة شوقه.. إلخ فإن أفلح المرید في رحلته الوسطية هذه، واستوفى شروط أركان هذا المقام الأكبر، أُعطي مفتاح النهاية، مفتاح الخمر راموز الدخول إلى الحضرة لإلهية، وفي ذلك يقول سيدي عبد القادر¹⁶.

نَهايتُها شَمُّ وذوقُ شِرابِها به رِيٌّ خَمْرٍ ثمَّ شَكَرٌ بَغِيبةِ
فَأَمطارُها فِكْرٌ وَذِكْرٌ وَعَبْرَةٌ ومَحْوٌ ذَوَاتِهم لِلذَّاتِ العَظيمةِ
وَمِن بَعْدِ غيمٍ جِاءَ صَحْوٌ سَمائِها بِإِشراقِ شَمْسٍ بالمَعارِفِ
فَجَذَبٌ لَهُ عِزْمٌ انْتَهى دُونَ حاجِبٍ إلى حِضرةِ القُدوسِ نُججَ بِسُرعةِ
وَحالٌ لها حَوَى الأُصولَ بِأسْرِها طَريقةِ أسلافِ بِيضاءِ نَقِيَّةِ
فَهَذِي فُصولُها وَشَرطُ كَمالِها مَنوطٌ بَعلمٍ ثمَّ حَكَمٍ وَحِكْمَةِ
لِها الجَمعُ جَمعُ الجَمعِ جَمعُ اتِّحادِها أَصولٌ لها شَهودٌ في كُلِّ لَمحةِ
فالألفاظ الواردة في الأبيات كالشم، والذوق، والشراب، والسكر، والغيبة، والفكر والذكر، والحو، والصحو والإشراق (التجلي)، والجذب، والحجب،

والحضرة، والحال، والجمع، وجمع الجمع، والاتحاد، والمشاهدة، هي ألفاظ دالة على الأحوال التي هي ثمار المقامات السابقة الذكر، ونتيجة المجاهدة فيها. قال بعض مشايخ خرسان "الأحوال مواريث الأعمال» وعند القشيري "الأحوال مواهب، والمقامات مكاسب، الأحوال تأتي من الوجود نفسه، والمقامات تحصل ببذل الجهود، وصاحب المقام ممكن في مقامه، وصاحب الحال مترق عن حاله.».

وقد عيز شيخنا سيدي عبد القادر عن الأحوال بلفظة النهاية الكامنة في الذوق والشراب والأمطار والسكر وغيرها، وكلها مواهب ربانية لا تتأتى إلا للمريد السالك الذي تخطى كل المقامات متدرجا فيها، إلى أن منح شهادة التحصيل المقاماتي أو إجازة الاعتراف العرفاني، رمز النهاية المفعمة بالأحوال والمواجيد، هذه الأحوال وهذه المواجيد المبنية على المكاشفة والمشاهدة والفناء في حب الله، ذاك الحب الذي يصل بالحببة إلى مقام التجلي، مقام شمس العرفانية الربانية الذي عبر عنه سيدي الشيخ بزوال الحاجب إلى حضرة القدوس .

والمريد السالك حتى وإن امتلك البداية والقواعد والنهاية، فإنه لا يرتدي لبوس الطريقة الشيخية، أو لقب شيخ الطريقة، إلا إذا استوفى فصولها وشروط كمالها كالعلم، والحلم، والحكمة، وجمع جمعها، وجمع اتجاهها . عند ذاك يعطى الولاية كمفتاح للدخول لهذه الطريقة، ثم يترقى في رتبها من نقيب، إلى عميد، إلى غوث فقطب.

يقول سيدي عبد القادر¹⁷ .

فأولها وليُّ ثم نقيبها نقيب كذا الإبدال فأزوا برتبة
عمادهم الأخيار أوتادهم حُبوا بخاصية المولي هم أهلُ الخصاصة

إن الولاية هي بداية الحال في الطريقة الشيخية، وهي متعلقة بالسالك المرید الذي امتلك المقامات وورث الأحوال واستجاب لشروط هذه الطريقة، وحتى وإن حل مقام الولاية ودعي بعدها نقيبا فعميدا فغوئا فقطبا، فإن تجربته الصوفية لم تكتمل، لذلك فهو مطالب بالمزيد من التحصيل المعرفي عن طريق الكشف لمعرفة علوم هذه الطريقة، حتى إذا اكتمل له ذلك صار في ركب العرفاء شيوخ الطريقة الشيخية وإليه يشار بالبنان، ويصر بالعيان يقول سيدي الشيخ: فشئخُ الشئوخُ ذاك شئخُ زماننا إليه انتهت علومُ هذه الطَّريقة

المصادر والمراجع:

1. ينظر د/ عبد الوارث عبد المنعم حداد، الأدب الصوفي «تاريخاً وفناً، مصر: مطبعة السعادة ط 1، ص 216.
2. د/ زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، بيروت: دار الجيل (د. ت)، ص 292 .
3. تقوية إيمان المحسنين "مناقب الشيخ سيدي عبد القادر بن محمد بن سليمان بن أبي سماعة، للعلامة أحمد بن أبي بكر السكوني، الشريف الفيحجي، تحقيق الأستاذ طواهرية عبد الله، وهران: دار الأديب للنشر والتوزيع ص 174 .
4. المصدر نفسه، ص 174 .
5. البيد محمود أبو الفيض المنوفي، معالم الطريق إلى الله، القاهرة: دار نضرة مصر للطبع والنشر 1969، ص 211.
6. تقوية إيمان المحبين ص 177 .
7. ينظر/ علي علي صبح، الأدب الإسلامي الصوفي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، مصر: المكتبة الأزهرية للتراث، ط 2 1997 ص 272-273، عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية، تحقيق وإعداد معروف زريق وعلي عبد الحميد بلطه جي، بيروت: دار الجيل ط 2 (د. ت)، ص 56 وما بعدها
8. معالم الطريقة إلى الله، ص 212 .
9. الإمام عبد الوهاب الشعراي، الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية ج 1 ص 118، حققه طه عبد الباقي سرور والسيد محمد عبد الشافي بيروت: مكتبة المعارف ط 1 2003م
10. ينظر عماد الدين الأموي، حياة القلوب في كيفية الوصول إلى المحبوب، تحقيق د/ محمد سيد سلطان القاهرة: دار جوامع الكلم، ط 2002، ص 122، والقشيري، ص 91-92 .
11. تقوية إيمان المحبين، ص 177.
12. المصدر نفسه، ص 177 .
13. رواه أبو هرة وأخرجه ابن ماجه رقم 4217 في الزهديات والورع والتقوى
14. ينظر د/ محمد سعد حسن فشوان، دراسات في الأدب الصوفي وتاريخه، القاهرة: مطبعة عاطف، ط 1 1979، ص 278 .
15. تقوية إيمان المحبين، ص 177 .
16. المصدر نفسه، ص 177-118 .
17. المصدر نفسه 178 .